تاريخ الإرسال: 2020/5/1	تاريخ المراجعة:2020/5/18	تاريخ القبول: 2020/6/01

السلطة والمال عند ابن خلدون: السلطة الحفصية أنموذجا.

Pouvoir et argent d'après Ibn Khaldûn : l'exemple du pouvoir hafside

الأستاذ الدكتور: بعيزيق صالح

جامعة تونس–كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية.

الملخص: نحاول في هذا المقال أن ندرس العلاقة بين المال كعامل اقتصادي والسلطة كفاعل في المجتمع في أعلى الهرم الاجتماعي حسب المقاربة الخلدونية وسنأخذ السلطة الحفصية أنموذجا نظرا لأن ابن خلدون قد عايشها. لا تطرح هذه العلاقة عند ابن خلدون ظاهريا جدلية فقد أكد على أن الجاه هو المتحكم وهو المتفوق على المال وهي نظرة أحادية أي في اتجاه واحد قد تخفيالجدلية بينها إن لم نعمق التحليل بقراءة أخرى لأفكاره وبمجمل المعطيات. وقد أدت بنا إلى فهم مختلف عن القراءة الأحادية وإلى إبراز الجدلية والترابط بين المال والجاه والسلطة. وحاولنا تقييم القوة المالية للسلطة وأن نبين مفعول المال عند السلطان الحفصي كمثال. وبينا قوة المال رغم ما نقرأه في المقدمة بأن الجاه هو المتفوق. تجاوزنا النظرة الأحادية الظاهرة بمدعمات وفرها لنا ابن خلدون نفسه ووضحنا الجدلية القائمة بين المال والجاه والسلطة آنذاك وترابطها المتين وتبين أن المال أمر حيوي للسلطة وأن الجاه غير قادر على الاستمرار دونه وأنه مولد للمال في الآن نفسه وراع له، ناهيك أن السلطان نفسه كان أكبر مالك للمال.

الكلمات المفاتيح: المال–الجاه–السلطة–السلطان–الجدلية.

Le résumé :

Nous essayons dans cet article d'étudier, selon l'approche khaldûnienne, le rapport entre l'argent, au sens large du terme comme facteur économique et le pouvoir hafside en tant qu'exemple et comme acteur social placé au sommet de la hiérarchie sociale.

A première vue, l'analyse d'Ibn Khaldûnne ne suggère pas une dialectique de rapports. Il a plutôt insisté sur la suprématie du jâh. C'est une vision à « sens unique » qui peut cacher cette dialectique si on n'approfondit pas l'analyse par une lecture différente de ses idées et de l'ensemble des données et si on ne fait pas des recoupements avec d'autres sources.

Nous avons évalué la force de l'argent sur le pouvoir en essayant de voir en particulier son effet sur le sultan hafside. Nous sommes allés au-delà de la vision apparente « à sens unique » grâce à une analyse par des arguments qu'on a trouvés chez Ibn Khaldûn lui-même, et nous avons démontré la dialectique entre argent, jâh et pouvoir. Il s'est avéré que l'argent est vital pour le pouvoir et que le jâh ne peut se maintenir sans argent et il est en même temps générateur et protecteur d'argent, sans oublier que le sultan hafside lui-même était le plus grand possesseur d'argent.

Mots clés : argent-pouvoir-jah-sultan-dialectique.

مقدمة:

اعتُبِر عبد الرحمن بن خلدون من قبل الباحثين رائدا في التحليل النظري للمجتمع والسلطة انطلاقا من ظواهر عصره وأحداثه والعصور السابقة له. تناولوه بالبحث خاصة فيما يتعلق بمفاهيم العمران الحضري والبدوي والعصبية والجاه والكسب والحسب والنسب والخاصة والعامة ونظرية نمو الدولة وتأثير الطبيعة على البشر ونمط عيشهم والتعريف بمختلف أنشطة السكان الاقتصادية والعلمية. لكنّهم قلما درسوا من خلال مؤلفاته تفاعل مختلف الفاعلين في المجتمع فيما بينهم ومع العوامل المحركة لحياة الناس. الفاعلون هم الأفراد والمجموعات والفئات والقوى البشرية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مثل القبيلة والسلطة والتجار والمزارعون والفقهاء وغيرهم، والعوامل المحركة هي عوامل اجتماعية، اقتصادية وسياسية مثل المال والدّين، القانون، العادة، التقاليد، الجاه، والقيم المختلفة.

نحاول في هذا الاتّجاه أن نحلّل العلاقة بين المال كعامل اقتصادي متدخل بشدة في حياة المجتمع والسلطة الحفصية كفاعل في المجتمع منتصب في أعلى الهرم الاجتماعي وذلك انطلاقا من المقاربة الخلدونية بالاعتماد على "المقدمة" أولا ثم على بقية أجزاء "كتاب العبر" خاصّة على الجزئين السادس والسابع اللذين يهتمان بالفترة التي تهمنا في هذه الدراسة. فالمقدمة هي التي تمكننا من تتبع المفاهيم المركزية والتفكير الخلدوني، بينما نجد في الأجزاء الأخرى أمثلة مدعّمة من تاريخ السلطة الحفصية.

نركز اهتمامنا على الباب الخامس من المقدمة لأنه هو الذي يوفر لنا أهم المعطيات المتعلقة بموضوعنا حول المال والسلطة وعنوانه هو "في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك من الأحوال"(ابن خلدون، المقدمة: 380-429). و نجد أيضا في البابين الثاني و الثالث معلومات ثرية بالنسبة إلى الموضوع نفسه رغم قلتها، وعنوان الباب الثاني هو "في العمران البدوي و الأمم الوحشية و القبائل و ما يعرض في ذلك من الأحوال و فيه فصول و تمهيدات"(ابن خلدون، المقدمة: 154-342) وعنوان الفصل الثالث هو "في الدول العامة و الملك و الخلافة و المراتب السلطانية و ما يعرض في ذلك كله من الأحوال و فيه قواعد و متمّمات" (ابن خلدون، المقدمة: 120-153).

لا يمكن تحليل هذه العلاقة بمعزل عن مفهوم أساسي عند ابن خلدون هو مفهوم الجاه مرتبط بالسلطة يجعله العامل الأساسي في التراتب الاجتماعي و ممارسة النفوذ بينما يبقى المال رهينا له. لذلك نتساءل في الجزء الأول عن الجدلية بين العناصر الثلاثة المال و الجاه و السلطة في بناء التراتب الاجتماعي؟ و تبعا للنتائج التي سنتوصل إليها نحاول في الجزء الثاني أن نقيّم القوة المالية للسلطة و سنأخذ السلطة الحفصية نموذجا لها و ننطلق في بحثنا من تجربة ابن خلدون مع السلطة.

1. مسيرة ابن خلدون مع السلطة من أهم العوامل المفسرة لنظرياته:

نحاول فهم مسيرة ابن خلدون مع السلطة لنتبين أهميتها في وضع نظرياته و مفاهيمه حولها لا سيما فيما يتعلق بمقاربته حول السلطة و المال. غير أننا لا نرى ضروريا التوسع في التعريف به إذ تعددت الدراسات حوله و خُصّصت له الكتب و الندوات و المقالات المتنوعة؛ و نُشرت مؤلفاته عديد المرات[11]. نحاول فيما يلي التذكير فقط بأهم المعطيات المتعلقة بمسيرته مع السلطة.

عاش عبد الرحمن ابن خلدون خلال الثلثين الأخيرين للقرن 8هـ/14مو بداية القرن 9هـ/15م بما أنه ولد أيام الحفصيين بتونس سنة 1332/732 و توفي بالقاهرة أيام المماليك سنة 1406/808. تحدث عن نفسه في كتابه التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا، فذكر أنه ينتمي إلى عائلة أصلها عربي يمني[12] هاجرت إلى الأندلس منذ الفتح ثم أقامت بإشبيلية في القرن 5هـ/11م و اندمجت في أوساط الحكم إذ أصبح بعض أفرادها وزراء في عهد بني عباد، كما شاركت العائلة في معركة الزلاقة التي أَوْقَفَت لحين تقدُّمَ عمليات الاسترداد الإسبانية في 479هـ/1086م.

غادر بنو خلدون الأندلس إثر سقوط إشبيلية في 646هـ/1248م متجهين إلى مدينة سبتة التي انتقلوا منها إلى تونس عاصمة الحفصيين[13] الذين تربطهم بهم صلات سابقة إذ تَعَرَّفَ بنو خلدون على بني حفص حين كان هؤلاء ولاة للموحدين على إشبيلية. نشير إلى أن الأميرة الشهيرة عطف الملقبة بـ"أم الخلائف" هي جارية أصلها من جليقية (Galicie) أهداها أحد أقارب ابن خلدون إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي. لذلك احتلت العائلة مكانها لدى الحفصيين منذ قدومها إلى تونس[14]. فعبد الرحمن متصل إذن بأصحاب الحكم منذ نشأته، يعرفهم ويعرفونه، ثم بعد مرور عشرين سنة من عمره قضاها في إفريقية الحفصية تنقل في فضاءات سياسية مختلفة وعاش

[11].انظر عناوين بعض الدّراسات و الندوات و المقالات حول ابن خلدون ضمن قائمة المصادر و المراجع المدرجة في آخر المقال.

[12]. يقول ابن خلدون عن نسب عائلته: "و نسبنا حضرموت، من عرب اليمن، إلى وائل بن حُجر، من أقيال العرب، معروف و له صحبة"، رحلة ابن خلدون،،تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004،ص 27 ؛ , وذكر سلسلة نسبه الشخصي كما يلي: " عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون.لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، و يغلب على الظن أنهم أكثر، لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين؛ ثلاثة لكل مائة"، المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

[13].يقول ابن خلدون: "...انتقل سلفنا ،عند الجلاء و غَلَبِ ملك الجلالقة ابن أدفونش عليها(أي على إشبيلية)، إلى تونس في أوسط المائة السابعة"، المصدر نفسه، ص 27.

[14]. يقول ابن خلدون: "...كان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم (بالحفصيين)، و أهدى بعض أجدادنا من قِبل الأمهات، و يعرف بابن المحتسب، للأمير أبي زكرياء يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم، جارية من سبي الجلالقة، اتخذها أمّ ولد، ...و كانت تلقب أمّ الخلفاء..."، المصدر نفسه، ص 32-33.

في حكم سلالات حاكمة مختلفة. بدأ رحلته سنة 754هـ/1353م[15] عبر بلاد المغرب ومملكة غرناطة فأقام في أهم مدنها وبواديها: بجاية، تلمسان، فاس، غرناطة، بسكرة، وقلعة بني سلامة. غادر تونس نهائيا سنة 784هـ/ 1382م وعمره 50 سنة شمسية متجها نحو المشرق عن طريق البحر وحطّ بميناء الإسكندرية[16]. وبدأ رحلته المشرقية انطلاقا من هذه المدينة تراوحت بين الذهاب والإياب من مكان إلى آخر بما في ذلك الحج وزيارة بيت المقدس إلى أن انتهى به المطاف أخيرا في القاهرة سنة 803هـ/1401م.

اخترنا مثال السلطة الحفصية لدراسة إشكالية السّلطة والمال لأنه عايش الحفصيين وحاشيتهم عن قرب و تحدث عنهم. مارس هو نفسه السلطة معهم و مع غيرهم لأنه عين في مناصب سياسية عليا كما اضطلع بمهمة القضاء. نذكر أنه عين في 754هـ/1353م كاتبا لعلامة السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم (750هـ/1350م- 770هـ/1369م)[17]، و اختاره السلطان المريني أبو سالم (760هـ/1358م-761هـ/1359م) كاتبا لسره (ابن خلدون، التعريف بابن خلدون: 74-83) و تولى حجابة أمير بجاية أبي عبد الله محمد الحفصي لمدة خمسة عشر شهرا من 766هـ/1365م إلى 767هـ/1366م[18] و عين قاضيا للمالكية في القاهرة مرتين سنة 786هـ/1384م و سنة 801هـ/1399م. نضيف إلى هذه المهام سفاراته الدبلوماسية لدى الملوك و القبائل. أرسله صديقه الوزير ابن الخطيب رسولا عن سلطان بني الأحمر بغرناطة إلى ملك قشتالة بيدرو الأول Pédro Ier (1350-1369) بإشبيلية في 765هـ/1364م-1365 وسافر لمقابلة تيمورلنك نيابة عن أهل سوريا في محاولة لإنقاذ دمشق من الحصار والدمار، وتمت المقابلة في منتصف 803هـ/أوائل 1401م في معسكره قرب المدينة المحاصرة.

رافق ابن خلدون أيضا بعض سلاطين بلاد المغرب و عايشهم عن قرب، وهم السلطانان الحفصيان أبو إسحاق إبراهيم((750/1350- 770/1369) وأبو العباس أحمد (772/1370-796/1394)، والسلطانان المر ينيان أبوعنان(749/1348-759/1358) و أبو سالم (760/1359-762/1361) و السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني (760/1359-791/1389). و قد تصرف هو نفسه تجاه الفئات

[15]. يقول ابن خلدون: "و خرجت معهم (أي مع السلطان و ابن تافراكين و عسكره) سنة ثلاث و خمسين"، المصدر نفسه، ص 65.

[16]يذكر ابن خلدون ذلك قائلا: " و لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع و ثمانين، أقمنا في البحر نحوا من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر."، المصدر نفسه، ص 199.

[17]. يقول ابن خلدون : " و استدعاني أبو محمد بن تافراكين، المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانه"، المصدرنفسه، ص 65.

[18]. يقول ابن خلدون : " استقللت بحمل ملكه و، و استفرغت جهدي في سياسة أموره و تدبير سلطانه"، المصدر نفسه، ص 95؛ بعيزيق، صالح، ابن خلدون و مدينة بجاية.أعمال ملتقى ابن خلدون ناظرا و منظورا إليه.تونس 16-18 نوفمبر 2006،تنسيقمحمد حسن.تونس: مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية، 2009، ص 18.

الأخرى من منطلق السلطة ويتبين ذلك في وصفه لاستقبال أهل بجاية له بأمر من أميرها حين نزل بها قادما من الأندلس قائلا:" ...تهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يمسحون أعطافي، و يقبلون يديّ، و كان يوما مشهودا" (ابن خلدون، التعريف: 95).

بينت هذه المسيرة الطويلة لابن خلدون في عالم السلطة معرفته العميقة بها و مكنته في "المقدمة" من عرض تصوراته المتعلقة بها و بأصحابها و إنشاء مفاهيم خاصة بها. و قد اكتشف ابن خلدون أن الجاه مفهوم أساسي في التعريف بالسلطة و التراتب الاجتماعي. عاش هو نفسه هذا الجاه المترتب عن موقعه في السلطة حتى رأى الناس يمسحون أعطافه و يقبلون يديه و يقف الأكابر عند بابه. لذلك مثل الجاه بالنسبة إلى إشكالية العلاقة بين المال و السلطة مفهوما مركزيا. نحاول أولا أن نفهم العلاقة بين المال و الجاه والسلطة انطلاقا من التفكير الخلدوني. فهل كانت علاقة جدلية أم أحادية الاتجاه؟ و نبدأ بتساؤل أول: هل المال مقفز نحو الجاه ؟

2. جدلية المال والجاه والسلطة في بناء التراتب الاجتماعي عند ابن خلدون :

أ. هل المال مقفز نحو الجاه ؟

يعرف ابن خلدون الجاه[19] بأنه "القدرة الحاملة للبشر على التصرف في مَن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن و المنع و التسلط بالقهر و الغلبة ليحملهم على دفع مضارهم و جلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع و السياسة و على أغراضه فيما سوى ذلك. و لكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات و الثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي لأنه لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير..." (ابن خلدون، المقّدّمة:390).

الجاه حسب هذا التعريف هو التفوق الاجتماعي والقدرة على ممارسة السلطة على من هو أقل مرتبة عامة من أجل الخير، و قد تمارس من أجل الشر. ويستعمل ابن خلدون عبارات أخرى تدل على أن تعريف الجاه يتلخص في السيادة و التفوق و النفوذ إذ يستعمل عبارات مختلفة تدل كلها على "الخاصة" ، فهم "أهل الجاه" و "أهل الحل و العقد" و "العلية" و "أهــل الثروات و البيـوتات" و " ذوي الحسـب و النسب".

[19]. ابن خلدون المقدمة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988،ص 368، 389-391، 395؛ بعيزيق،صالح،بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية و اجتماعية، تونس: كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2006: 380-394.

يبقى المال في التفكير الخلدوني عاملا غير محدِّد في بناء التّراتب الاجتماعي والعلاقة بين السلطة والطبقات الاجتماعية؛و الملك أي السلطة هي التي تملك الجاه و تتصرف فيه و توزعه من الأعلى إلى الأسفل حسب نظام تراتبي. و صاحب الملك يتصرف في الجاه لأنه مثبت في الملك بقوة أخرى هي العصبية، إذ يقول:" فالتغلب الملكي غاية للعصبية" (ابن خلدون، المقدمة: 139) و يضيف أن صاحب الملك يبذل الجاه "لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة..." (ابن خلدون، المقدمة: 391) ويفسر ابن خلدون توزع الجاه كما يلي: "إن الجاه متوزع في الناس و مترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية و في السفلة إلى من لا يملك ضرا و لا نفعا بين أبناء جنسه و بين ذلك طبقات متعددة..." (ابن خلدون، المقدمة: 390).

ويمكن الحصول على الجاه عند ابن خلدون خارج دائرة الملك بفضل الشرف و العلم، وذلك لأنهما يستمدان شرعيتهما من الدين، بينما يبقى المال عند ابن خلدون غير مستقل عن الجاه في بناء التراتب الاجتماعي، ولابد من تدخل السلطة في بناء الهرم التّراتبي للخاصة لترتيب المقربين و الموالين لها.

قراءة مختلفة للتحليل الخلدوني أكثر تمعنا و مقابلته بمعطيات مصدرية أخرى قد تسمح لنا بتقييم آخر لدور المال في منظومة السلطة. نتساءل أولا هل كان المال عاملا للرقي الاجتماعي و السياسي؟

نلاحظ في كتاب الغبريني عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية أن الجاه والمال مرتبطان الواحد بالآخر. قال الغبريني عند حديثه عن الفقيه أبي علي عبد المحسن الصواف يقول إنه "لم يتمسك بشيء من الدنيا لا بمال و لا بجاه" (الغبريني، عنوان الدراية: 180). تترجم عبارة الغبريني الواقع الاجتماعي حيث يتلازم المال و الجاه. تتكامل قولة الغبريني و رأي ابن خلدون. يؤكد المؤلفان على أهمية المال في الارتقاء الاجتماعي. بالنسبة إلى الأول يتساوى المال والجاه و هما في علاقة وطيدة، و بالنسبة إلى الثاني يخول المال لصاحبه الحصول على الجاه بالتقرب من أصحابه. فهو امتياز يفتح المجال نحو الجاه بالطرق اللازمة لذلك. إذن عند ابن خلدون الجاه و المال يلتقيان أيضا. وهو يعمق تحليله حين يبين أن الجاه ينمي ثروة الأثرياء، يعني أن للجاه وظيفة اقتصادية نظرا لعلاقته بالمال. فهو يقول: " لابد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه..." (ابن خلدون، المقدمة: 368). ويواصل قائلا: " إن كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقا فمثله..." (ابن خلدون، المقدمة:389) ولأن صاحب الجاه " مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه" (ابن خلدون، المقدمة: 389). فَهِم الأثرياء الرّهانَ، فقد ورد مثال يدل على

ذلك في كتاب العبر يتعلق بتجار بجاية. هؤلاء أقرضوا الأموال في 684هـ/1285م للحاجب أبي الحسين بن سيد الناس لإقامة كرسي الملك لأبي زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي[20] الذي انفصل عن السلطة المركزية بتونس[21]. عرف التجار أن انفصال بجاية لن يكون إلا لصالحهم من خلال قراءة الوضع المضطرب في الدولة الحفصية إثر تمرد الدعي أحمد ابن أبي عمارة آنذاك من 681هـ/ 1283م إلى 683هـ/1284م و حالة الضعف التي كان يعاني منها السلطان أبو حفص عمر و عجزه عن صدّ ملك أرغون عن غزو جربة و فرض أتاوة سنوية عليه سنة 684هـ/1286م[22]. فالتجار كانوا يأملون في إعادة الاستقرار وفي نفس الوقت استطاعوا بأموالهم كسب الدعم و الحماية من صاحب الملك الجديد. فلم تكن المساعدة المالية تعبيرا عن ولائهم للأمير بقدر ما كانت عملا استراتيجيا.

تُكافِئُ السّلطةُ من يساندها مادّيا مستجيبة لمعادلة متمثلة في الجاه مقابل المال. وهي مكافأة مضاعفة أحيانا بإسناد الوظائف السياسية والإدارية. نجد من الوظائف المذكورة خاصة وظيفة رئيس البحر المسمى أيضا صاحب البحر وقائد الأسطول و "رايس بجاية". وهو رئيس لديوان البحر و الميناء و قائدا للأسطول الحربي.

كانت إذن وظيفة مدنية وعسكرية في نفس الوقت، ذكر لنا ابن خلدون شخصين كبيرين من بين التجار البجائيين عُيِّنا في هذا المنصب من قِبَل السلطان نفسه فانسحب عليهما الجاه وعلى عائلتيهما، هما زيد بن فرحون[23] و محمد بن أبي مهدي[24].

---

[20].يقول ابن خلدون: " و استقرض (ابن سيد الناس) من تجار بجاية هنالك مالا أنفقه في إقامة أبهة الملك له و جمع الرجال و اصطنع الأولياء"، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت- دار الكتاب اللبناني، 1959، ج VI، ص 699.

[21]. دام هذا الانفصال من 1285/684 إلى 1309/709 وتوالى على هذه الدولة المنفصلة أميران هما أبوزكرياء ابن أبي اسحاق من 1285/684 إلى وفاته في 1301/700 وابنه أبو البقاء خالد إلى 1309/709 حين توجه إلى تونس واستولى على الحكم ووحد الدولة وحكمها إلى 1311/711؛ بعيزيق،صالح، 2006، ص69-71.

[22]. ابن الشماع، أبوعبد الله، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية،تحقيق الطاهر المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984، ص 179. 179؛ ابن خلدون،العبر: VI، 693؛ ابن القنفذ القسنطيني، ، أبو العباس أحمد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968، ص 143؛ برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي، جزءان، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988،I،116-122؛ بعيزيق، 2006: 69-70.

[23]. أنظر كتاب بعيزيق (2006) في الصفحات: 222، 223، 285، 415-419، 460

24 . أظر نفس المرجع في الصفحات: 81، 96، 98، 117، 118، 223، 289، 295، 416-419، 460

هذا مثال محمد بن أبي مهدي، هو ملاح من أكابر التّجار. أصبح سيّد بجاية لمدة ثلاث وثلاثين سنة من 772هـ/1370م إلى 805هـ/1403م. عيّنه السلطان أبو العباس أحمد 772هـ/1370م-796هـ/1394م) رئيسا للبحر في بجاية ووضعه في نفس الوقت وصيا على ابنه والي بجاية الذي مازال صبيا قاصرا. عرف محمد بن أبي مهدي كيف ينتفع من مهامه فاستبد بجميع السلطات السياسية والإدارية والاقتصادية ببجاية وجهتها. هكذا مثلت هذه الشخصية نموذج الرجل الثري الذي تمتع بالثراء وجاه السلطة، ارتقى بفضل ثرائه إلى أعلى مراتب السلطة في بجاية، لأنه كان الوالي الفعلي بالوصاية ثم استفاد من منصبه استفادة شاملة. فهل كان المال دائما وسيلة للارتقاء ؟

ب. هل كان المال دائما وسيلة للارتقاء ؟

لا تعترف السلطة بفئة الأغنياء الذين كانوا يمارسون مهنا اعتبرت آنذاك مهنا خسيسة (زيادة، 1982: 153-161)..(Brunschvig, 1962: 41-60) وحتى المجتمع بصفة عامة لم يستسغ مهنهم بل احتقرها و لم يحترم أصحابها، لذلك لم يأمل هؤلاء أبدا في كسب الجاه و بالتالي لم يأملوا في الانتماء يوما إلى فئات الخاصة.أضفى الفقيه محمد ابن عرفة (1381/783) ومحمّد الرصاع(تـ.1489/894) في "الفهرست")على المهن مدلولا اجتماعيا "طبقيا" فقد اعتبر ابن عرفة الحياكة مثلا مهنة شريفة،لأن الفئات العليا في حاجة لها. وعَرّف الرصاع المهنَ النفيسةَ بأنّها مهن تستجيب لحاجيات "الخاصة" مثل صناعة الحلي والعطور والشّمع و الزّخرفة. فأصحاب المهن النفيسة أو على الأقل المهن غير الرذيلة هم القادرون على الارتقاء إلى مراتب "الخاصة" و يستطيعون حسب ابن خلدون اكتساب الجاه بالولاء لأصحاب السلطة. كما أن أهل المراتب العليا قد يضيفون لنشاطهم مهنة من المهن النفيسة مثلما كان الأمر بالنسبة إلى الحاج فضل قهرمان القصر أيام الانفصال الأول لبجاية (84هـ/1285م-709هـ/1309م) الذي مارس تجارة الحرير من الأندلس و تجارة الثياب الجيدة من تونس و كان يسافر بنفسه لانتقاء البضاعتين[25]. و مثل الفقيه أبي محمد عبد الله الشريف (القرن السابع هجري الموافق ل13 ميلادي) الذي امتهن تجارة الصوف في قيسارية بجاية (الغبريني، عنوان الدراية: 177).

[25]. يقول ابن خلدون: " و كان الحاج فضل كثيرا ما يتردد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك و انتقاء أصنافها، و كذلك إلى تونس لاستجادة الثياب"، **العبر**،ج VI ، ص 725.

أمّا المهن الخسيسة فهي، حسب كتب الحسبة، مهن وسخة و حقيرة. يؤكد أبو عبد الله محمد السقطي (القرن السادس هجري/ ق 12م) في كتابه "في أدب الحسبة" أن النخاسين و باعة العبيد يقومون بما لا ترضاه الشريعة و المؤمنون لأنهم يتصرفون في الأنساب والأموال (السقطي، في آداب الحسبة: 189؛ زيادة، 1982: 154). و عدّ محمد ابن الأخوة (تـ. 729هـ/1329م) في كتابه "معالم القربة في أحكام الحسبة" بعض المهن ضمن المهن الخسيسة مثل الجزار و بائع السمك و النخاس و الصيرفي و الكناس و العرّاف (ابن الأخوة، معالم:I، 5-318).

وهكذا، لم يمثل المال دائما وسيلة للتقرب من السلطة أو مقفزا للارتقاء إلى طبقة "الخاصة"؛ فبالنسبة إلى هذا الصنف من الأغنياء لم يتجاوز الارتقاءُ الاجتماعي عندهم الرفاهةَ المادِيةَ، فرغم ثرائها ليس لها إلا أن تنتمي إلى فئات "العامة". تبين لنا مما سبق أن المال في حاجة إلى السلطة المالكة للجاه. غير أن تحليلنا يبقى منقوصا إن لم نتساءل عن حاجة السلطة للمال وأصحابه.

ج. هل الجاه في حاجة إلى المال؟

قراءة أخرى ممكنة للتحليل الخلدوني:

أولا، يجب أن نعرف أن مالكي الجاه لا يمررونه إلى غيرهم إلا إذا كان ذلك لصالحهم. و لكن ما هو الشيء الذي يهمهم عندئذ؟ أليس هو المال؟ بعبارة أخرى يملك الأغنياء قوة المال التي تفرضهم على أصحاب السلطة مالكي الجاه. وبالتالي فإن هؤلاء، بدءا بالسلطان، في حاجة إلى تلك القوة المادية.

ثانيا، يمارس أصحاب السلطة الضغطَ على الأثرياء غير الخاضعين و حتى على الموالين منهم، يزعجونهم أو يستولون أحيانا على أملاكهم. يذكر ابن خلدون أن الحضري إذا صار أغنى أغنياء المدينة و رغد عيشه في الترف و الرفاهة و نافس الأمراء و الملوك في أسلوب حياتهم، فإنه يصبح في نظر هؤلاء شخصا مزعجا. و يضيف أن أصحاب السلطة يحاصرونه، غايتهم الاستيلاء على ماله، و يرى أن على الأثرياء عندئذ أن يعملوا على التقرب من أصحاب السلطة لحماية أموالهم[26].

[26].يقول اين خلدون : " الحضري إذا عظم تموّله و كثر للعقار و الضياع تأثّله و أصبح أغنى أهل المصر و رمقته العيون بذلك و انفسحت أحواله في الترف و العوائد زاحم عليها الأمراء و الملوك و غصّوا به و لما في طباع البشر من العدوان تمتدّ أعينهم إلى تملّك ما بيده و ينافسونه فيه و يتحيلون على ذلك بكل ممكن حتّى يحصلوه في ربقة حكم سلطاني و سببٍ من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله...»، المقدمة، ص 368.

يقدّم لنا ابن بطوطة مثالا لرجل من أهل الجزائر لا يتمتع بحماية السلطة ويخبرنا أنه تعرض للاعتداء من قبل الحاجب محمد بن سيد الناس الذي انتزع منه ثلاثة آلاف دينار ذهبي[27]. و كان على الرجل أن يوصل المبلغ إلى ورثة تاجر بتونس توفي في طريق العودة[28]. يدل هذا النوع من الممارسات على أن بين السلطة و الأثرياء صراعا للسيطرة على الثّروة. و هذا يعني أن المال كان الأداة الفعلية والحيوية عند السلطة كسلطة سياسية و كفئة اجتماعية منتصبة في قمة الهرم الاجتماعي.

ثالثا، يشير ابن خلدون نفسه في سياق حديثه عن تراكم المال بيد السلطان المتأتي من الجباية و يكسبه ذلك القوة المادية التي تفضي إلى توسع جاهه: " تكثر ثروته و تمتلئ خزائنه و يتسع نطاق جاهه و يعتز على سائر قومه"(ابن خلدون، المقدمة: 283).

إنّ أصحاب السلطة والأثرياء في حاجة لبعضهم البعض، فالعلاقة جدلية بينهما.يمكّن الجاه بدوره من توسيع الثروة، يعني ذلك أيضا أن السلطة هي من أصحاب الأموال. فهل كانت تمثل قوة مالية؟

3. القوة المالية للسلطة:

أ. السلطان والمال: السلطان أغنى رجل في المجتمع:

يؤكد ابن خلدون على أن السلطان كان أغنى رجل في الدولة ويضيف أن أصحاب السلطة، جميعهم،كانوا يعملون على تنمية ثرواتهم. ويتحدث في هذا الاتجاه عن السلطة بوصفها صاحبة مال ويؤكد على أهمية قوتها الاقتصادية إذ يقول: "... إنّ الدولة و السّلطان هي السوق الأعظم للعالَم...أُمّ الأسواق كلها وأصلها ومادتها...فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه و منه إليهم فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية..."(ابن خلدون، المقدمة: 286).

السلطان هو الذي كان يوجه حركة الأموال والأملاك، وبالتالي هو الذي كان يوجه التمويلات. كان دوره كمالك للأموال حاسما في تنامي مجالات التمويل. لهذا السبب كانت له الفاعلية المباشرة على تمويلات غيره

[27]. أي ما يعادل حوالي 14 كلغ من الذّهب لأن الدينار الذهبي يساوي آنذاك حوالي 4.72 غراما، بعيزيق،2006، ص 257-281.

[28].يروي محمد ابن بطوطة هذه الحادثة قائلا: "كان أمير بجاية إذ ذاك (سنة 1325/725) أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب. و كان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة: محمد بن الحجر و ترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، و أوصى بها لرجل من أهل الجزائر، يعرف بابن حديدة، ليوصلها إلى ورثته بتونس، فانتهى خبره لابن سيد الناس، فانتزعها من يده، و هذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين و ولاتهم..."،ابن بطوطة،رحلة، ص 19-20.

ومعاملاتهم. تحدث ابن خلدون عن إمكانية "حَبْس" السلطان للمال وانعكاسه السلبي على الرعية. يفهم من ذلك أن دوره كان محددا بوصفه قوة مالية قادرة على تنشيط المعاملات أو إحداث ركود اقتصادي عام.

نشير أيضا إلى أن العائلة السلطانية ومن حولها وأصحاب الوظائف العليا كانوا في حاجة أيضا،بوصفهم فئة اجتماعية منتصبة في أعلى السّلم، إلى المحافظة على أعلى مستويات العيش، وطبعا لم يكن ذلك ممكنا إلا بالمال.

من أين كانت تأتيهم الأموال؟

ب. موارد الثروة للسلطان والفئة الحاكمة:

مثلت المصادرات وعمليات الاستيلاء على أموال الغير موردا هاما للسلطان والمقربين، فرضوها بالتسلط بطرق مختلفة: التخويف والقهر وحتى التعذيب. وقد تُختم النهاية المأساوية لبعض رجال الدولة باستنطاق حول الأموال والأملاك، ثم تتم مصادرتها إن صرح بها أو توصل أعوان السلطان إلى كشفها ، و الأمثلة متعددة في كتاب العبر أو المصادر الأخرى التي رسمت تقريبا نفس المصير لأغلب الشخصيات: المصادرة ثم الموت تحت التعذيب. يعين السلطان في كل مرة شخصا مكلفا بالاستنطاق و المصادرة. نذكر من ضحايا التعذيب أبا عثمان سعيد بن أبي الحسن سنة 676هـ/1278م وابن الحبيرسنة 678هـ/1279م ومحمد بن سيد الناس سنة 733هـ/1332م.[29]

لم تكن المصادرات والاستيلاء أهم موارد المال بالنسبة إلى السلطة بل كانت الجباية هي الأهم بمختلف أشكالها الحضرية والريفية ومن بينها الضرائب المستخلصة في الموانئ التي كانت هامة. يؤكد ابن خلدون على أهمية الجباية بالنسبة إلى السلطان إذ قال: " ينفرد صاحب الدولة ...بالجباية أو معظمها ويحتوي على الأموال ويحتجزها للنفقات في مهمات الأحوال فتكثر ثروته و تمتلئ خزائنه و يتسع نطاق جاهه و يعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته و ذويه من وزير و كاتب و حاجب و مولى و شرطي و يتسع جاههم و يقتنون الأموال و يتأثلونها..." (ابن خلدون، المقدمة: 283). السلطان إذن هو سيد الجباية، و انتفع منها أيضا رجال دولته. فقد كانت الجباية كما قدمها ابن خلدون في هذه الفقرة مصدر إثراء شخصي. كان الخلط كليا بين أموال الدولة و الأموال الخاصة لرجال السلطة رغم أن الفرق نظريا كان موجودا.

[29]. أنظر: ابن خلدون،العبر:VI، 434، 436، 500-501؛ ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية: 137؛ الزركشي، تاريخ الدولتين: 69-70.

احتلت الأرض والعقارات المختلفة أيضا مكانة هامة ضمن الموارد المالية للسلطة، لاسيما الأرض. يسمي ابن خلدون أملاك السلطان بـ" خالصة السلطان" أو "مختص الملك" و يفرق بين أملاك السلطان وأملاك الدولة (حسن، I:1999، 308-334). كان السلطان اكبر المالكين للأرض، غير أن المعلومات المتوفرة في مصادرنا لا تمكننا من تقييم اتساع أراضيه وأهميتها. نفهم فقط من ابن خلدون أن أراضيه مساوية لأراضي الدولة. و في الواقع كان السلطان هو المنتفع الأول حتى من أراضي الدولة و مبانيها إذ كانت له اليد العليا على الأراضي الدولية المسماة "أرض الظاهر" أو "أرض العنوة". فهو الذي كان يقتطع منها الإقطاعات ويستخلص منها مقابل ذلك الضرائب مثل ضريبة "الحكر" بعنوان الكراء وضريبة العشر.

كانت السلطة في قمة الثراء إذن، غير أن ابن خلدون يرى أن الثراء قد تُعكَس نتائجه من الايجابي إلى السلبي.

ج. المفارقة: الثروة والانحدار:

ابن خلدون وفيّ لنظريته المتعلقة بدورة التطور. فهو يرى أن الثروة إذا بلغت ذروتها تفضي إلى الانحدار، لأنها تخلق وضعية قوامها الترف غير المنتج والمتميز بخاصية رئيسية، هي التبذير. لخص نظريته كما يلي حين تكلم عن العائلة الحاكمة: " على قدر ترفهم و نعمتهم يكون إشرافهم على الفناء" (ابن خلدون، المقدمة: 141). ويربط بين الترف والخمول و يربط حتى بين الترف و العجز عن القيام بأنشطة فلاحية وحرفية و تجارية. ذكر ذلك في سياق حديثه عن ابتغاء الكنوز قائلا: "وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حدّ النهاية حتى تُقَصِّر عنها وجوه الكسب ومذاهبه.» (ابن خلدون، المقدمة: 385-386). وبالتالي فالترف ليس إلا استنزافا للثروة وغيابا للإرادة الإنتاجية وانعدام الاستثمار المالي.

يعتبر ابن خلدون فيما يخص الدولة أن الترف يضعف العصبية أساسَ قوة الملك إذ يقول: "إنّ عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سَوْرة العصبية التي بها التغلّب" (ابن خلدون، المقدمة: 141). يعني قوله أن الملك ينفصل عن أسسه أيعن الكنفدرالية القبلية والمحيطين به وغيرهم. تبعا لذلك يتقهقر شيئا فشيئا إلى أن يهوي في الأزمة. يتحدث ابن خلدون عن تهريب رؤوس الأموال كإحدى النتائج المباشرة لهذه الأزمة. وهو تهريب مترتب عن الرغبة في حماية أموال متأتية بطرق شتى. فالفئة الحاكمة، ومنها السلطان، ترى خلاصها في الهروب بمالها الحاصل في يديها من "مال الدولة إلى قطر آخر" وتعتقد أن ذلك "أهنأ" و "أسلم" (ابن خلدون، المقدمة: 284). نجد في كتاب العبر مثالا لذلك هو السلطان أبو يحي زكريا بن أحمد اللحياني (711هـ/1311-717هـ/1317) الذي فرّ عن طريق البحر سنة 717هـ/1317م حاملا معه كنزه الشخصي انطلاقا من ميناء طرابلس نحو مصر ليلجأ عند سلطانها الناصر محمد بن قلاوون. لكن هذا الأخير استحوذ على مال اللحياني تدريجيا إلى أن سلبه كل شيء ولم يُبق له إلا جراية للحصول على حاجياته الحياتية لا غير.

الخاتمة:

يقدم لنا ابن خلدون معطيات تبين قوة المال رغم تشبثه بتفويق الجاه عن المال. وقد حاولنا التمعن في قراءة نص "المقدمة" ونصوص مصدرية أخرى لنتجاوز النظرة الأحادية الخلدونية في تحليل العلاقة بين السلطة والجاه والمال ولنوضح العلاقة الجدلية بينها.

تبين أن السّلطة المقترنة بالجاه كانت متلهفةٌ للحصول على المال وتبين أن المال أمر حيوي لها وأن الجاه الذي يعني التفوق والهيبة غير قادر على الاستمرار إلا بقوة المال الذي يصون الأبهة وقوة السلطة التي كانت في حاجة لتحريك آلات الحكم بالمال مثل الجيش والشرطة والدواليب الاقتصادية والتحكم في الدورة الاقتصادية بما أن السلطان كان أكبر مـــالك للمال والعقار. فبالمال كان هو الأقوى في المجتمع والاقتصاد، وبالمال حافظت السلطة على مركزها في أعلى السلم الاجتماعي.

المصادر و المراجع:

المصادر:

1. ابن الأخوة، محمد. معالم القربة في أحكام الحسبة. في: مجموعة في التراث الاقتصادي الإسلامي. 2ج. ص 27-316. بيروت:دار الحداثة، (د.ت).
2. ابن الشماع، أبوعبد الله. الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تحقيق الطاهر المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.
3. ابن القنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي. تونس: الدار التونسية للنشر، 1968.
4. ابن بطوطة، محمد. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أو رحلة ابن بطوطة. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1991.
5. ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988.
6. ابن خلدون، عبد الرحمن. رحلة ابن خلدون. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2004.

7. ابن خلدون، عبد الرحمن.كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1959.

8. الزركشي، أبو عبد الله. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس: المكتبة العتيقة، 1966.

9. الغبريني ، أبو العباس. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للتوزيع، 1970.

10. الونشريسي، أحمد. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. ج8، تحقيق جماعي. بيروت: دار الغرب الإسلامي ،1981.

11. De MAS-LATRIE, éd. Chartes inédites relatives aux états de Bougie et de Bône (1268-1293-1480). *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, Paris 1841-1842, A, II, p.391, 393-396.

المراجع العربية:

1. برنشفيك، روبار. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي. جزءان. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

2. بعيزيق، صالح. ابن خلدون ومدينة بجاية. في: *أعمال ملتقى ابن خلدون ناظرا ومنظورا إليه*. تونس 16-18 نوفمبر 2006. تنسيق محمد حسن. تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، 2009، ص 13-27.

3. بعيزيق، صالح. بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006.

4. بن سالم، حميش. الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر،2007.

5. الجابري، محمد عابد. معالم نظريّة خلدونيّة في التاريخ الإسلامي. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1971.

6. الحاجري، محمد طه. ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة. بيروت: دار النهضة العربية، 1980.

7. حسن، محمد. المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي.جزءان. تونس: جامعة تونس، 1999.

8. زيادة، خالد. الخسيس والنفيس، الفئات في المدينة الإسلامية. في: *الفكر العربي*، عدد 29، 1982، ص 153-161.

المراجع الأجنبية:

1. BERQUE, Jacques. « Les capitales de l'Islam méditerranéen vues par Ibn Khaldoun et les deux Maqqarî ». Dans Annales *Islamologiques*, vol.8, 1969, pp. 71-97.
2. BOUHDIBA, Abdelwaheb et CHAPOUTOT-REMADI, Mounira, *Sur les pas d'Ibn Khaldûn.* Tunis : Ministère de la culture et de la sauvegarde du patrimoine, 2006.
3. BOUKRAA, Ridha. Le concept khaldûnien de 'umrânijtima'î à la lumière du paradigme actuel de la société postmoderne. *Revue Tunisienne des Sciences Sociales*, 2008, n° 136, pp.237-251.
4. BRUSCHVIG, Robert. Métiers vils en Islam. *Studia Islamica*, XVI, 1962, p.41-60.
5. CHEDDADI, Abdesselam. Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldûn. *Annales E.S.C*, 1980, n° 3 et 4, pp.534-550.
6. LACOSTE, Yves. *Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, passé du tiers monde.* Paris: F. Maspero, 1978.
7. PICARD, Christophe. Ibn Khaldûn, le pouvoir musulman et la Méditerranée. *Ibn Khaldûn aux sources de la modernité*. Carthage : Académie Tunisienne Beït al Hikma, 2008, pp. 44-57.
8. RAMBERT, G. dir. *Histoire du commerce de Marseille,* t.2. Paris: Librairie Plon, 1951.
9. ROSENTHAL, Erwin. Ibn Khaldun as a political Thinker. *Maghreb Review*, 1979, Vol.4, n°1, pp.1-5.
10. TALBI, Mohamed Ibn Khaldûn. *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, 1973, III, p. 853.
11. TALBI, Mohamed. *Ibn Khaldûn et l'histoire*, Tunis : STD, 1973 .